25

القدس، كمان وكمان

لم يذهب أنيس مع ساري وعلا إلى العمل اليوم، فطلبتُ منه مرافقتي إلى القدس. لا أريد زيارة السوق وشوارع القدس العتيقة فحسب، أودّ كذلك التعرف أكثر على تاريخ المدينة وأساطيرها. نبدأ من أسوارها الرومانية التي رممها السلطان العثماني سليمان القانوني أو العظيم كما يلقب في الغرب. ثم نحوّل على أبواب المدينة الخمسة عشر. خمس عشرة طريقة للدنو منها... هذه الجميلة الخاضعة، المنصاعة، المطواعة التي تدعك تتغلغل فيها... باب يافا؟ أو باب الست مريم الذي يقود إلى ضريح العذراء؟ أو لمَ لا، باب الأسود؟ الباب الذي نحت عليه السلطان المملوكي بيبرس الأسود ليردّ لعنة رؤيا تنبأت له بأنه سيموت ممزقًا بأنياب وحش. اليوم، لن نسلك الزقاق المار بباب العمود الذي أمرّ به عادة.

يكفي الدخول إليها، لنسير بعدها ونتقدم وأعيننا مغمضة، مفتوحة، لتلفّ خطواتنا وتسير بنا في متاهة، نضيع تارة فيها ونجد الدرب تارة أخرى، وكم نغدو سعداء ونحن نتمشى مأخوذين بجمال عمارة، عظمة مكان أو أثر ما... كنيسة القيامة، مثلًا!

– "انظر أنيس، هذه كنيسة القيامة وفي هذا المكان صُلب المسيح وأيضًا نُصّب الامبراطور كونستانتين عام 326. إنه صرح هائل فيه الصليب والقبر المقدس".

أخاطب ولدي لكني في الحقيقة، كنت أحكي مع حالي.

– "انظر يا بنيّ! افتح عينيك على وسعهما!

لكني أحس بنظراته مشوشة. مثل كثير من الجزائريين، هو أيضًا يجد صعوبة في الاعتراف بالتنوع الديني الذي يميز شرقنا. كيف لعربي أن يكون مسيحيًا؟ كل هؤلاء الذين يعرفهم في الجزائر مسلمون.

– ولكنهم مسيحيو الشرق، إنهم الأصل.

ويسألني:

– واليسوع؟

– "يسوع ليس فرنسيًا ولا هولانديًا ولا دانمركيًا. إنه فلسطيني".

ندخل كنيسة الملاك التي تقع فوق تلة الجماجم حيث صُلب المسيح. في المدخل بعض كهنة أغريقين ورجال دين إثيوبيين يحاولون بكل لباقة إدارة حشود الحجيج. نراقب تعبد الزائرين، بالأحرى الزائرات. أولئك الفلسطينيات العربيات المسيحيات يبدوّنَ مثالًا على الحمية الدينية بغطاء

الرأس الملون وتمتماتهن وهن يشعلن الشموع أو يتخذن وضعية الصلاة فيجلسن بخشوع يهمسن بصلواتهن.

– "إنهن خالاتي أنيس، aunty كما نقول هنا على الطريقة البريطانية، خالاتي الختيارات. خالاتي من بعيد، هؤلاء اللواتي لم يرحلن من هنا أبدًا واللواتي يسرن على تقاليد الأجداد. نعم، إنهن مثل جدتك، يلففن ورق العنب ويطبخن الملوخية والبامية ومحشي الكوسا... لديهن نفس الوصفات مع تنوع صغير ربما لتتلاءم مع ذوق المقادسة. ذات الوصفات، ذات الأمهات، ذات الخالات... مع فارق أنهن كنّ دوما في المواجهة وبقين هنا أمام العدو، يتابعن حياتهن على هذه الأرض. "أوه يارب يا حبيبنا" تهمس واحدة للأخرى، يقتربن بهدوء وعزّة من مدخل الكهف المقدس ينحنين كثيرًا ويركعن بركبة واحدة على الأرض، ركبة توجعهن لا ريب لكنهن يسجدن لأداء صلاة أخرى. أخذت آلة التصوير واقتربت لأضغط على الزر، أردت التقاط صورة لهذه المغارة منبع لإيمان كبير. إنما ليس الأمر يسيرًا، فسيداتنا اللطيفات يتدافعن لولوج المغارة. أجد نفسي ورائهن دون قصد، وصورتي تبدي ضخامتهن من الخلف ولا تلتقط سوى مؤخراتهن العريضة. اتسلح بالصبر وانتهي بالنجاح في المحاولة السابعة أو الثامنة. أخيرًا بات مدخل هذه المغارة الشهيرة التي شهدت آلام المسيح الأخيرة مسجلًا في الكاميرا.

أشعر بالرضى، فنخرج ونسير على درب الالام الذي يسلكه حجاج كثر وهم يستعيدون آلام المسيح. يُستهل الدرب من أطونية، قاعة المحكمة

التي كانت قلعة في العصور القديمة حيث كان بونطيس النبطي. ننزلها متوجهين نحو باب الأسود الذي يقود إلى جبل الزيتون، هنا تشهد أعيننا مشهدًا رائعًا للمصابيح الذهبية لكنيسة مريم المجدلية المبنية نهاية القرن التاسع عشر من قبل الروس الأرثوذكس.

– أنيس، هل تصغي لشروحاتي؟ أتبصر ما أبصر؟!

لا أدري. هو أمام هذا الموقع البديع لا يتوقف عن النق واظهار علامات التعب وربما الضجر كي لا نتابع المسير. أعتقد بأني لو كنت في عمره لفعلت مثله. لا شيء يثير اهتمامه في هذه المناظر الثابتة المستقرة حيث السكون يغلّف كل شيء.

– حسنًا بنيّ! لن ألحّ. أبقى أنا هنا وترجع أنت إلى بيت حنينا. لكن، ليس قبل أن ترى كنيسة الجثمانية، على كل نحن عندها وها هي الحدائق المزروعة بالزيتون حيث عاش يسوع لحظاته الأخيرة قبل أن يمسك به الجنود".

في اللحظة التي كنا نودع فيها بعضنا البعض، نلمح معًا قبة الصخرة، لم تكن المرة الأولى بالطبع فهي مرئية من كل مكان.

نورها يعمّ المدينة وأطرافها. نحن الأن نجاورها قريبون منها نكاد نلامسها، يالعظمتها سنحتاج وقتًا لزيارتها، لذلك اتفقنا على العودة في الغد لنشبع منها ونصلي فيها.

اختصر زيارتي فجأة، وأعود مع أنيس.